الفصل العاشر
فَتْحُ مَكَّةَ
٢٢ رمضان ٨ هـ- يناير ٦٣٠ م

المبحث الأول
ملخص الغزوة

وسببها أن معاهدة الحديبية فتحت الباب لكل قبيلة عربية أن تدخل في عقد رسول الله ﷺ إن شاءت، أو تدخل في عقد قريش، فقد اشتملت معاهدة الصلح على مادة تنص على ذلك، فارتضت بنو بكر أن تدخل في عقد قريش، وارتضت خزاعة أن تدخل في عقد سول الله ﷺ ، وفي تلك السنة (الثامنة) اعتدت بنو بكر على خزاعة، فقتلت منها نحو عشرين رجلا، وأمدت قريش بني بكر بالمال والسلاح، فلما بلغ ذلك الرسول ﷺ سار رسول الله ﷺ إليهم من المدينة لعشر مضين من رمضان، وكان عددهم حين خروجهم من المدينة عشرة آلاف، ثم انضم إليهم في الطريق عدد من قبائل العرب، وفي (مر الظهران) عثر حرس رسول الله على أبي سفيان واثنين معه، فأسروهم وجاؤوا بهم إلى النبي ﷺ ، فأسلم أبو سفيان .. ثم وصل الجيش مكة، فأعلن منادي الرسول ﷺ: من دخل دار أبي سفيان وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.. ثم دخل رسول الله مكة وهو راكب راحلته، عليه الخشوع والتواضع، وطاف الرسول بالبيت، وأزال ما حولها من أصنام ، وأصدر رسول الله ﷺ عفوًا عامًا عن أهل مكة .. ثم اجتمع الناس حول الصفا ليبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام١ .

---

١ انظر في تفاصيل الغزوة : ابن هشام ٤/ ٣١، والطبري ٣/ ١١٠، والبلاذري : أنساب الأشراف ١/ ١٧٠، وابن سيد الناس ٢/ ١٦٣، وابن القيم :زاد المعاد ٢/ ٣٨٤، والمقريزي٣٥٧، ومصطفى السباعي ص ٧٥

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول : ما يتعلق بالهدنة ونقضها :

أولاً : يدلنا سبب فتح مكة على أن أهل العهد والهدنة مع المسلمين، إذا حاربوا من هم في ذمة المسلمين وجوارهم، صاروا محاربين للمسلمين بذلك، ولم يبق بينهم وبين المسلمين من عهد. وهذا ما اتفق عليه علماء المسلمين١ ..

ثانيًا : تدلنا الطريقة التي قصد بها رسول الله ﷺمكة، على أنه يجوز لإمام المسلمين ورئيسهم أن يفاجيء العدو بالإغارة والحرب لدى خيانته العهد ونبذه له، ولا يجب عليه أن يعلمهم بذلك، وقد دعا رسول الله ﷺ لما أجمع الخروج إلى مكة قائلاً : " اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعوا بنا إلا فجأة "٢ وهذا ما اتفق عليه عامة العلماء٣..

أما إذا لم تقع الخيانة، وإنما خيف منهم ذلك، بسبب علائم ودلائل قوية، فلا يجوز حينئذ للإمام أن ينبذ عهدهم ويفاجئهم بالحرب والقتال، بل لابد من إعلامهم جميعًا بذلك اولاً، بدليل قوله تعالى : "وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ " [الأنفال٥٨]، أي أعلمهم كلهم عن نبذك لعهدهم٤.

المطلب الثاني: إحباط محاولة تجسس حاطب لصالح قريش :

عن علي ابن أبي طالب قال :

بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِّ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ فَقَالَ : " انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً ، مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوا مِنْهَا" .

قَالَ : فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ ، قُلْنَا لَهَا : أَخْرِجِي الْكِتَابَ !

قَالَتْ : مَا مَعِي كِتَابٌ ..

---

١ انظر: محمد سعيد رمضان البوطي ٢٧٠

٢ ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٢٨٢

٣ انظر: محمد سعيد رمضان البوطي ٢٧٠

٤ انظر: محمد سعيد رمضان البوطي ٢٧٠

فَقُلْنَا : لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ .

قَالَ : فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَإِذَا فِيهِ : مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ بِمَكَّةَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

"يَا حَاطِبُ ! مَا هَذَا ؟ ! " ..

قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ .. كُنْتُ حَلِيفًا وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا ، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ مَنْ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنْ النَّسَبِ فِيهِمْ ، أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي ، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ " .

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

" أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ " ..

فَقَالَ عُمَرُ : " يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ" .

فَقَالَ: " إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ! وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا .. فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ !" ..

فَأَنْزَلَ اللهُ السُّورَةَ :

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ إِلَى قَوْلِهِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ " [1]

وفي هذا الموقف دلالة على عدم جواز التخابر لصالح العدو، ولا يجوز للمسلمين أن يتخذوا من أعداء الله أولياء يلقون إليهم بالمودة ..

وقد عفا رسول الله ﷺ عن حاطب لعدة أسباب وجيهة :

أن حاطبًا قد شهد بدرًا ، وأن الله قد تاب على حاطب، وأن عملية التخابر لم تتم ولم تنجح ..

وفي عفوه ﷺ عن حاطب يدل على أهمية العفو عن أصحاب السبق والفضل في الإسلام إذا ما وقع في خطيئة أو ذلت أقدامهم في مصيبة ..

---

١ صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة الفتح وما بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بغزو النبي ﷺ (٣٩٣٩)

المطلب الثالث : أسلوب مشروع في التأثير النفسي على قادة العدو :

لَمَّا سَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فَبَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ وَبُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ يَلْتَمِسُونَ الْخَبَرَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَقْبَلُوا يَسِيرُونَ حَتَّى أَتَوْا مَرَّ الظَّهْرَانِ فَإِذَا هُمْ بِنِيرَانٍ كَأَنَّهَا نِيرَانُ عَرَفَةَ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : مَا هَذِهِ ؟ ! لَكَأَنَّهَا نِيرَانُ عَرَفَةَ.

فَقَالَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ : نِيرَانُ بَنِي عَمْرٍو .

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : عَمْرٌو أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ .

فَرَآهُمْ نَاسٌ مِنْ حَرَسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَدْرَكُوهُمْ فَأَخَذُوهُمْ فَأَتَوْا بِهِمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَسْلَمَ أَبُو سُفْيَانَ، فَلَمَّا سَارَ ، قَالَ لِلْعَبَّاسِ :

"احْبِسْ أَبَا سُفْيَانَ عِنْدَ حَطْمِ الْخَيْلِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ" فَحَبَسَهُ الْعَبَّاسُ ، فَجَعَلَتْ الْقَبَائِلُ تَمُرُّ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ تَمُرُّ كَتِيبَةً كَتِيبَةً عَلَى أَبِي سُفْيَانَ .. فَمَرَّتْ كَتِيبَةٌ قَالَ : يَا عَبَّاسُ مَنْ هَذِهِ ؟

قَالَ : هَذِهِ غِفَارُ ..

قَالَ : مَا لِي وَلِغِفَارَ..

ثُمَّ مَرَّتْ جُهَيْنَةُ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ مَرَّتْ سَعْدُ بْنُ هُذَيْمٍ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَمَرَّتْ سُلَيْمُ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ..

وهي حنكة من القيادة الإسلامية للتأثير على نفسية أبي سفيان، بحيث يقتنع تمامًا بعدم جدوى المقاومة .. ومن ثم تُفتح مكة دون قطرة دم، وهذا ما كان يبغيه رسول الله ﷺ

المطلب الرابع : حظر الشعارات والهتافات غير الأخلاقية :

وفي أثناء وقوف أبي سفيان يتأمل في ذهول وحيرة، كتائب الإسلام، حَتَّى أَقْبَلَتْ كَتِيبَةٌ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا قَالَ : مَنْ هَذِهِ ؟

قَالَ العباس: هَؤُلَاءِ الْأَنْصَارُ عَلَيْهِمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، مَعَهُ الرَّايَةُ ..

فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: يَا أَبَا سُفْيَانَ ! الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ ! الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ!

فساءت هذه الكلمات أبا سفيان أبو سفيان وقال : يَا عَبَّاسُ حَبَّذَا يَوْمُ الذِّمَارِ ..

ثُمَّ جَاءَتْ كَتِيبَةٌ وَهِيَ أَقَلُّ الْكَتَائِبِ فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَرَايَةُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ

الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ، فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَبِي سُفْيَانَ.. قَالَ: أَلَمْ تَعْلَمْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ؟

قَالَ : "مَا قَالَ ؟ "

قَالَ : كَذَا وَكَذَا .

فَقَالَ : "كَذَبَ سَعْدٌ، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللهُ فِيهِ الْكَعْبَةَ وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ "١

المطلب الخامس : دخول رحيم متواضع لا دخول جبار متعال

دخل رسول الله ﷺمكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام، وهو واضع رأسه تواضعًا لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح مستشعرًا بنعمة الفتح وغفران الذنوب، وإفاضة النصر العزيز٢ وعندما دخل مكة فاتحًا -وهي قلب جزيرة العرب ومركزها الروحي والسياسي- رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة، والتواضع والخضوع، فأردف أسامة بن زيد-وهو ابن مولى رسول الله ﷺ- ولم يردف أحدا من أبناء بني هاشم وأبناء أشراف قريش وهم كثير، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمانٍ من الهجرة٣

يقول محمد الغزالي في وصف دخول النبي ﷺ مكة:

على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ورسول الله ﷺ على ناقته تتوج هامته عمامة دسماء، ورأسه خفيض من شدة التخشع لله، لقد انحنى على رحله وبدا عليه التواضع الجمّ.. إن الموكب الفخم المهيب الذي ينساب به حثيثا إلى جوف الحرم، والفيلق الدارع الذي يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة شيء آمن، إن هذا الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول: كيف خرج مطاردًا؟ وكيف يعود اليوم منصورًا مؤيدًا؟ وأي كرامة عظمى حفه الله بها هذا الصباح الميمون؟ وكلما استشعر هذه النعماء ازداد لله على راحلته خشوعًا وانحناء٤.

المطلب السادس : انتماء القائد لجنوده واعتزازه بذلك أمامهم :

عن أبي هريرة قال :

---

١ صحيح البخاري – كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح(٣٩٤٤)

٢ انظر: محمد فوزي فيض الله : صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة،٣٩٦ وعلي محمد الصلابي ٢/ ٣٧٤

٣ انظر: أبو الحسن الندوي : السيرة النبوية ، ٣٣٧.

٤ انظر: محمد الغزالي : فقه السيرة ، ٣٧٩، ٣٨٠.

كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهَّ ﷺيَوْمَ الْفَتْحِ فَجَعَلَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ عَلَى الْمُجَنِّبَةِ الْيُمْنَى، وَجَعَلَ الزُّبَيْرَ عَلَى الْمُجَنِّبَةِ الْيُسْرَى، وَجَعَلَ أَبَا عُبَيْدَةَ عَلَى الْبَيَاذِقَةِ وَبَطْنِ الْوَادِي، فَقَالَ :

"يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ادْعُ لِي الْأَنْصَارَ" ..

فَدَعَوْتُهُمْ فَجَاءُوا يُهَرْوِلُونَ فَقَالَ :

"يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ هَلْ تَرَوْنَ أَوْبَاشَ قُرَيْشٍ " ..

قَالُوا: نَعَمْ

قَالَ: " انْظُرُوا إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ غَدًا أَنْ تَحْصُدُوهُمْ حَصْدًا "، وَأَخْفَى بِيَدِهِ وَوَضَعَ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ، وَقَالَ : "مَوْعِدُكُمْ الصَّفَا" ..

فَمَا أَشْرَفَ يَوْمَئِذٍ لَهُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَنَامُوهُ .. وَصَعِدَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ الصَّفَا، وَجَاءَتْ الْأَنْصَارُ فَأَطَافُوا بِالصَّفَا فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ أُبِيدَتْ خَضْرَاءُ قُرَيْشٍ لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ .. !!

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: " مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ " .

فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ : أَمَّا الرَّجُلُ [يقصدون النبي ﷺ] فَقَدْ أَخَذَتْهُ رَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ وَرَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ !

وَنَزَلَ الْوَحْيُ عَلَى رَسُولِ اللهَّ ﷺ فَقَالَ لهم:

"قُلْتُمْ أَمَّا الرَّجُلُ فَقَدْ أَخَذَتْهُ رَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ وَرَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ، أَلَا فَمَا اسْمِي إِذًا ! ؟ أَلَا فَمَا اسْمِي إِذًا ! ؟ أَلَا فَمَا اسْمِي إِذًا ! ؟ أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهَّ وَرَسُولِهِ ، هَاجَرْتُ إِلَى اللهَّ وَإِلَيْكُمْ، فَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ !! "

قَالُوا : وَاللهَّ مَا قُلْنَا إِلَّا ضِنًّا بِاللهَّ وَرَسُولِهِ !

قَالَ : "فَإِنَّ اللهَّ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذِرَانِكُمْ"[1]

المطلب السابع : العفو العام :

عن أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ قَالَ

لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أُصِيبَ مِنْ الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلًا وَمِنْ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ فِيهِمْ

---

١ صحيح مسلم – كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة (٣٣٣٢)

حَمْزَةُ فَمَثَّلُوا بِهِمْ فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ: لَئِنْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَنُرْبِيَنَّ عَلَيْهِمْ ..

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى

"وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ "

فَقَالَ رَجُلٌ : لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ !

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : "كُفُّوا عَنْ الْقَوْمِ إِلَّا أَرْبَعَةً"١

وفي هذا اليوم العظيم قال -النَّبِيَّ ﷺ- :

" لَا يُقْتَلُ قُرَشِيٌّ صَبْرًا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ "٢

وأصدر رسول الله -ﷺ- قراره الشهير بالعفو العام عن مشركي مكة .

يقول "كولن" متأملاً :

"تأملوا معي كيف أنهم أخرجوه هو ومن يقف معه من بيوتهم إلى منطقة صحراوية معلنين عليهم المقاطعة، ومعلقين بنود هذه المقاطعة الشريرة على جدار الكعبة، وكانت تقضي بعدم التعامل معهم بيعًا وشراء وعدم التزوج من بناتهم أو تزويج بناتهم لهم.

وقد دامت هذه المقاطعة ثلاث سنوات بحيث اضطروا إلى أكل العشب والجذور وأوراق الأشجار، حتى هلك منهم الأطفال والشيوخ من الجوع دون أن تهتز منهم شعرة، أو تتحرك عندهم عاطفة رحمة. ولم يكتفوا بهذا، بل اضطروهم لترك بيوتهم وأوطانهم والهجرة إلى أماكن أخرى بعيدة. ولم يدعوهم في راحة هناك فبدسائسهم المختلفة سلبوا منهم طعم الراحة والاطمئنان.

وفي غزوات بدر وأُحد والخندق اشتبكوا معهم في معارك ضارية، وحرموهم حتى من أبسط حقوقهم كزيارة الكعبة، وأرجعوهم إلى ديارهم بعد إبرام معاهدة ذات شروط قاسية. ولكن الله تعالى أنعم عليهم ففتحوا مكة ودخلها رسول الله ﷺ على رأس جيش عظيم.

فكيف كانت معاملته لأهل مكة بعد كل هذا التاريخ المملوء عداوة وبغضًا؟ لقد قال

---

١ سنن الترمذي - كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب من سورة النحل (٣٠٥٤)

٢ صحيح مسلم – كتاب الجهاد والسير، باب لا يقتل قرشي صبرا بعد الفتح (٣٣٣٤)

لهم: "اذهبوا فأنتم الطُلَقاء" .. "١

ولو كان محمد -ﷺ- من ملوك الدنيا لسالت دماء أهل مكة ولكنه قابله صنيعهم بالعفو فما كان منهم إلا أن دخلوا في دين الله أفواجا ..

"وفي إمكان المرء أن يتخيل المعاملة التي كان يجدر بفاتح دنيوي النزعة أن يعاملهم بها. ولكن صفح الرسول ﷺ كان لا يعرف حدوداً . فقد غفر لهم ثلاثة عشر عاماً من الاضطهاد والتآمر "٢ .. وهم الذين عذبوه وعذبوا أصحابه وهجَّروه وهجّروه أصحابه، وقتلوا منهم نفراً ليس بالعديد القليل ..

وحول مشهد العفو العام نترك علماء الغرب يعلقون على هذا الموقف العظيم الذي يعجز اللسان عن وصف بهائه وجماله وكمال أخلاقه .. فماذا عساهم أن يقولون ؟

أولاً : تعليق "اللورد هيدلي" :

يقول هيدلي : "عفا بلا قيد ولا شرط عن كل هؤلاء الذين اضطهدوه وعذبوه ! آوى إليه كل الذين كانوا قد نفوه من مكة ! وأغنى فقراءهم، وعفا عن ألد أعدائه ؛ عندما كانت حياتهم في قبضة يده وتحت رحمته...!"٣..

ثانيًا : تعليق واشنجتون ايرفنج

يقول "ايرفنج"، في كتابه (حياة محمد)، مدللاً على خلق الرحمة في شخصية النبي ﷺ بموقفه في فتح مكة وهو القائد المنتصر :

"كانت تصرفات الرسول [ﷺ] في [أعقاب فتح] مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر. فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي. ولكنه توّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو"٤.

ثالثًا : تعليق وليم موير :

يتحدث الباحث "وليم موير" عن معاملة النبي ﷺ أعداءه تلك المعاملة التي اتسمت بالرحمة والعفو، حين فتحه مكة ، فيقول :

---

١ محمد فتح الله كولن ٢/ ١٠٠

٢ مولانا محمد علي: حياة محمد و سيرته، ٢٦٩-٢٧٠.

٣ انظر: آتيين دينيه : محمد رسول الله ٢٧

٤ واشنجتون ايرفنج : حياة محمد ٧٢ .

"عامل حتى ألد أعدائه بكل كرم وسخاء حتى مع أهل مكة ، وهم الذين ناصبوه العداء سنين طوالاً ، وامتنعوا من الدخول في طاعته ، كما ظهر حلمه وصفحه في حالتي الظفر والانتصار ، وقد دانت لطاعته القبائل التي كانت من قبل أكثر مناجزة وعداء له"١.

رابعًا: تعليق : "جان باغوت غلوب"

يقول " غلوب" :

وهكذا تم فتح مكة دون إراقة دماء إلى حد كبير ... إلا أنه اكتسب قلوب الجميع بما أظهره من رحمة وعفو في يوم انتصاره "٢ .

يقول المستشرق إميل درمنغم متحدثاً عن نبينا محمد ﷺ في حال أخلاقه في مثل هذه المواقف:

"فقد برهن [محمد ﷺ] في انتصاره النهائي، على عظمة نفسية؛ قلَّ أن يوجد لها مثال في التاريخ؛ إذ أمر جنوده أن يعفوا عن الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء، وحذرهم أن يهدموا البيوت، أو يسلبوا التجار، أو أن يقطعوا الأشجار المثمرة، وأمرهم ألا يجردوا السيوف إلا في حال الضرورة القاهرة، بل رأيناه يؤنب بعض قواده ويصلح أخطاءهم إصلاحاً مادياً ويقول لهم: إن نفساً واحدة خير من أكثر الفتوح ثراء ! "٣ .

"وهكذا ظهر الرسول ﷺ الذي كان رحمة للعالمين، وحرر الإنسانية من أصفاد الجهل والخرافة والفساد"٤ .. بل ظهر كما وصفه المفكر البلجيكي هنري ماسيه :"يتصف بالرحمة الخالصة"٥. تلك الرحمة الخالصة التي غلبت دوماً – كما يبين مارسيل بوازار – على أحاديث النبي ﷺ وسيرته، فلا "تنفك الأحاديث الشريفة والسيرة النبوية تصور في الأذهان كرم الرسول وتواضعه، كما تصور استقامته ونقاءه ولطفه وحلمه . وكما يظهره التاريخ قائداً عظيماً ملء قلبه الرأفة، يصوره كذلك رجل دولة صريحاً قوي الشكيمة

---

١ وليم موير : حياة محمد، ٨٨

٢ جان باغوت غلوب : الفتوحات العربية الكبرى ، ص ١٥٦-١٥٧.

٣ انظر: بشرى زخاري ميخائيل : محمد رسول الله هكذا بشرت به الأناجيل، ص٥٠.

٤ مولانا محمد علي : حياة محمد و سيرته ، ٢٨٢.

٥ هنري ماسيه : الإسلام ، ص ١١.

(ديمقراطياً).."[1] .

المطلب الثامن : قتل مجرمي الحرب :

استثنى رَسُولُ اللهَّ ﷺ من العفو العام، عدة أشخاص، فأَمَّنَ النَّاسَ إِلَّا أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ، وَقَالَ :

"اقْتُلُوهُمْ وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ :

٢-عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ

٢- وَعَبْدُ اللهَّ بْنُ خَطَلٍ

٣-وَمَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ

٤-وَعَبْدُ اللهَّ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ

فَأَمَّا عَبْدُ اللهَّ بْنُ خَطَلٍ فَأُدْرِكَ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ فَاسْتَبَقَ إِلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ حُرَيْثٍ، وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فَسَبَقَ سَعِيدٌ عَمَّارًا ، وَكَانَ أَشَبَّ الرَّجُلَيْنِ فَقَتَلَهُ، وَأَمَّا مَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ فَأَدْرَكَهُ النَّاسُ فِي السُّوقِ فَقَتَلُوهُ ، وَأَمَّا عِكْرِمَةُ فَرَكِبَ الْبَحْرَ فَأَصَابَتْهُمْ عَاصِفٌ، فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ : أَخْلِصُوا فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا هَاهُنَا !

فَقَالَ عِكْرِمَةُ: وَاللهَّ لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي مِنْ الْبَحْرِ إِلَّا الْإِخْلَاصُ لَا يُنَجِّينِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ ! اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا ﷺ حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ فَلَأَجِدَنَّهُ عَفُوًّا كَرِيمًا !! " .

فَجَاءَ فَأَسْلَمَ ..

وَأَمَّا عَبْدُ اللهَّ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ، فَإِنَّهُ اخْتَبَأَ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، فَلَمَّا دَعَا رَسُولُ اللهَّ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ جَاءَ بِهِ حَتَّى أَوْقَفَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

قَالَ عثمان : يَا رَسُولَ اللهَّ بَايِعْ عَبْدَ اللهَّ ..

فَرَفَعَ ﷺ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثَلَاثًا ، كُلَّ ذَلِكَ يَأْبَى ..

فَبَايَعَهُ بَعْدَ ثَلَاثٍ .. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ :

"أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَى هَذَا حَيْثُ رَآنِي كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ فَيَقْتُلُهُ !!".

---

١ مارسيل بوزار : إنسانية الاسلام ، ص ٤٦.

فَقَالُوا : وَمَا يُدْرِينَا يَا رَسُولَ اللهَّ مَا فِي نَفْسِكَ ّ! هَلَّا أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ ؟

قَالَ : "إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ أَعْيُنٍ"١ .

المطلب التاسع : من خطبه وكلماته يوم فتح مكة

أولاً : دحض الجاهليات :

عَنْ ابْنِ عُمَرَ

أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ :

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ : بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللهَّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللهَّ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللهُّ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ قَالَ اللهُّ

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهَّ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ خَبِيرٌ "٢.

ثانيًا : تعظيم الأراضي المقدسة :

وفي هذا اليوم العظيم قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

"إِنْ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُّ ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ ، لَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرًا ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللهَّ ﷺفِيهَا فَقُولُوا لَهُ : إِنَّ اللهَّ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ وَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ "٣.

ثالثًا : في الدماء ومآثر الجاهلية :

عَنْ ابْنِ عُمَرَ

أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺقَامَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ -وَهُوَ عَلَى دَرَجِ الْكَعْبَةِ- فَحَمِدَ اللهَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ،فَقَالَ :

---

١ سنن النسائي – كتاب تحريم الدم، الحكم في المرتد (٣٩٩٩) وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي، والسلسلة الصحيحة (١٧٢٣)، و صحيح الجامع (٢٤٢٦)

٢ سنن الترمذي – كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب من سورة الحجرات (٣١٩٣)، وقال الألباني – في صحيح وضعيف سنن الترمذي-: حسن صحيح الإسناد، وهو في الصحيحة (٢٧٠٠)

٣ صحيح البخاري – كتاب المغازي: باب منزل النبي (٣٩٥٧)

"الْحَمْدُ للهَّ الَّذِي صَدَقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، أَلَا إِنَّ قَتِيلَ الْخَطَإِ قَتِيلَ السَّوْطِ وَالْعَصَا فِيهِ مِائَةٌ مِنْ الْإِبِلِ مِنْهَا أَرْبَعُونَ خَلِفَةً فِي بُطُونِهَا أَوْلَادُهَا . أَلَا إِنَّ كُلَّ مَأْثُرَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَدَمٍ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ سِدَانَةِ الْبَيْتِ وَسِقَايَةِ الْحَاجِّ، أَلَا إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُهُمَا لِأَهْلِهَا كَمَا كَانَا"١.

المطلب العاشر : تطهير المقدسات الإسلامية :

ودَخَلَ النَّبِيُّ ﷺمَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُ مِائَةِ نُصُبٍ، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ :

" جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ .. جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ "٢ .

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُمَا:

أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ أَبَى أَنْ يَدْخُلَ الْبَيْتَ وَفِيهِ الْآلِهَةُ فَأَمَرَ بِهَا فَأُخْرِجَتْ، فَأُخْرِجَ صُورَةُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ فِي أَيْدِيهِمَا مِنْ الْأَزْلَامِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

"قَاتَلَهُمْ اللهُّ ! لَقَدْ عَلِمُوا مَا اسْتَقْسَمَا بِهَا قَطُّ" ..

ثُمَّ دَخَلَ الْبَيْتَ فَكَبَّرَ فِي نَوَاحِي الْبَيْتِ وَخَرَجَ وَلَمْ يُصَلِّ فِيه٣ .

المطلب الحادي عشر : احترام جوار المرأة :

عن فاختة أم هانىء بنت أبي طالب قالت : لما كان يوم فتح مكة أجرت رجلين من أحمائي فأدخلتهما بيتا وأغلقت عليهما بابا فجاء ابن أمي علي بن أبي طالب فتفلت عليهما بالسيف ..

قالت:

فأتيت النبي ﷺ ... فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ :

"مَنْ هَذِهِ ؟ " .

فَقُلْتُ : أَنَا أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ..

فَقَالَ: " مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئٍ " .

---

١ سنن ابن ماجه – كتاب الديات، باب دية شبه العمد مغلظة (٢٦١٨)، وقال الألباني : حسن، في الإرواء (٧ / ٢٥٧)، وصحيح وضعيف سنن ابن ماجة

٢ صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح (٣٩٥٠) .

٣ صحيح البخاري، كتاب المغازي: باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح (٣٩٥١)

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ قَامَ فَصَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ فَلَمَّا انْصَرَفَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهَّ، زَعَمَ ابْنُ أُمِّي أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلًا قَدْ أَجَرْتُهُ فُلَانَ ابْنَ هُبَيْرَةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ:

" قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ"١ .

المطلب الثاني عشر : إكرام المسنين:

جَاءَ أَبُو بَكْرٍ بِأَبِيهِ أَبِي قُحَافَةَ إِلَى رَسُولِ اللهَّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ يَحْمِلُهُ، حَتَّى وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهَّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ :

"لَوْ أَقْرَرْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ لَأَتَيْنَاهُ مَكْرُمَةً لِأَبِي بَكْرٍ"..

فَأَسْلَمَ وَلِحْيَتُهُ وَرَأْسُهُ كَالثَّغَامَةِ بَيَاضًا..

فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺغَيِّرُوهُمَا وَجَنِّبُوهُ السَّوَادَ٢

* * *

١ صحيح البخاري، كتاب الصلاة باب الصلاة في الثوب الواحد ملتحفا به (٣٤٤)

٢ مسند أحمد (١٢١٧٤)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٦)